كان أمين أحد الرواد الأوائل الذين شغفوا بأحلام كبيرة ، وبدا مدققا يريد أن يقتل القديم فهما على حد تعبيره ، وبدا له قتل القديم فهما خطوة أولى تسبق كل شيء آخر ، وتم له ذلك فى مجال البلاغة ، أخذ يتناولها جملة وأخذ يتناول مسائلها مفردة ، وكان رحمه الله يجدد فكرة فى هذه المسائل ، وكنت أسمعه يقول فى عام ما لم يقله فى عام سابق ، وكان إلى جانب ذلك يريد أن يخرج إلى أفق الأسلوبية . نعم ، ومازلت أذكر كتابا له عن أبى العلاء عنون له باسم رأى فى أبى العلاء . . فى هذا الكتاب حاول الأستاذ أمين أن يغير الدرس الأدبى تغييرا لافتا ، فقد راح يحصى التضارب فى أفكار أبى العلاء إحصاء ، ويتعقب هذا التضارب تعقبا مفصلا . وكان يرى أن هذا التضارب عميق فى عقل أبى العلاء ، ومازال فى هذا المعنى حتى بدا له أن هذا التضارب لايبحث فحسب فى إطار الأفكار ، يجب أن يدرس فى إطار اللغة ذاتها ، لغة أبى العلاء . وحينئذ عثر بصبره على المتابعة والاستقصاء على كلمة (سر) التى يرددها أبو العلاء ، وقال إن هذه الكلمة لم تلفت أذهان الدارسين لأبى العلاء . لأنهم شغلوا بجانب عقلى فلسفى دون الجانب اللغوى ، وكان يرى أن الجانب العقلى الفلسفى غير المرتكز على اللغة إخلال بواجبات الدرس الأدبى .

ومن ثم خرج من فلسفات أبى العلاء التى لم يهون من شأنها قط الى التضارب ، ووصل التضارب بكلمة (سر) ، وقال متسائلا ما (سر) أبى العلاء،وقد راح يتحدث فى أمهات المسائل الفلسفية والأخلاقية والأجتماعية فى شجاعة بالغة حد الجرأة فى بعض الأحيان ؟ لقد كانت إثارة مثل هذا السؤال ذات أهمية كبيرة . لقد أراد أمين أن يتحدث

= وهذا فى اعتقادى ليس مجرد نظر عابر ، ولكنه ينطوى على تعديل حقيقى فى المواقف . وحينما نبحث فى حذف كلمة أو ذكرها إذن لانستطيع أن نغفل ـ فى رأى الأستاذ أمين ـ ظاهرة التجاور ، هذا التجاور بين كلمة محذوفة وكلمة مذكورة ، وكلمة معرفة ، وأخرى منكرة ، ثم تجاور ولكن البلاغيين عولوا على فكرة النقل فى شرح المعنى ، وخامر الأستاذ أمينا الشك فى موضوع النقل الذى استبد بعقول الباحثين فى كل مكان .

كان الأستاذ أمين يقول إن مبدأ التجاور يفسر الكثير ، يفسر الجناس والطباق والحذف والاستعارة ويخلص من كل ذلك إلى أن التقسيم الثلاثى للبلاغة هش . وبين ذلك بيانا عمليا وبيانا نظريا ، فليس هناك أصل للمراد وزيادة خاصة عليه ، وليس ثم حسن ذاتى وتطلية لهذا الحسن . ليس ثم مرحلتان فى الإبداع ، وإنما هى مرحلة واحدة تقوم فى نشاطها على التجاور الذى يسمونه أحيانا باسم التفاعل والاعتماد المتبادل . ويضيق بى المقام لو أردت أن أمضى فى تذكر نماذج من معارضته للفكر البلاغى ، وليس المقام محتاجا إليه . وفى ضوء ما سمعته منه نظرا وعملا كتبت رسالتين إحداهما عن « بلاغة عبدالقاهر عرض ونقد وتوجيه » والثانية عن الكشاف من وجهة أدبية ، كما كتب كثير من تلاميذه فى غير البلاغة .